

القاهرة.. رؤى ومشاهدات يابانية

د. رضا محمد عبد الرحيم

رابط التعريف الرقمي (DOI) [10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A01](https://doi.org/10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A01)

المخلص

جمع الباحث الفرنسي آلان روسيون في كتابة الهوية والحدثة¹ رحلات المصريين إلى اليابان في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ والتي كان باعثها الأول الوقوف على أسباب نجاح هذه الأمة الشرقية الصغيرة (اليابان) في هزيمة روسيا القيصرية عام 1905م. وفي الحقيقة جاءت رحلات اليابانيين قبل هذا التاريخ إلى مصر بنحو أربعين عاما عام 1862م ربما للأسباب نفسها: الوقوف على أسباب نهضة الأمة المصرية حينئذ، وبصرف النظر عن مسارات الرحالة وعن الاهتمامات التي أعلنها الرحالة أنفسهم.

فهذه الورقة البحثية تهدف إلى إبراز دور أدب الرحلة المائز في التعبير عن التنوع الثقافي بين البشر، الذي يشمل العادات والتقاليد في الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات والنظم الاجتماعية، وهذا واقع ضمن الدراسات الاثنوجرافية، التي تُساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، وهي أيضا عون للجغرافي؛ عبر المعاينة المرئية التي يقوم بها الرحالة، وما يصفه بدقة من أحوال البلدان وتضاريسها ومعالمها، وأيضا هي عون للمؤرخ في معرفة الجديد عن تاريخ البلدان والأقاليم، والتثبت مما ورد إليه من معلومات تاريخية، وهي عون للباحث الأدبي (الناقد) في الوقوف على بنية الأسلوب، والسرديات في عصر تسجيل مدونة الرحلة؛ لذا فإن التعامل مع أدب الرحلات من المنظور النقدي يكشف الكثير من الرؤى والفنيات الأدبية والأسلوبية.

الكلمات الدلالية

القاهرة، اليابان، فوكوزاوا يوكيتشي، توكوتومي كينجيرو، الإمبراطور شوا، الكشك الياباني، نوبوأكي نوتوها

¹ آلان روسيون، الهوية والحدثة، الرحالة المصريون في اليابان، القرن التاسع عشر - القرن العشرون ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2014م.

تُعد الرحلة جزءاً أصيلاً لحركة الحياة على الأرض، فالرحلة قديمة قدم التاريخ الإنسانية ذاتها، وهي وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الشعوب، والتعرف على العالم الخارجي. ومنذ القرن التاسع الميلادي تبلورت قيمة الرحلة وعظم الاهتمام بها، وكثر تدوين الرحلات في كثير من الكتب القيمة التي تحمل بين طياتها المعلومة التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية. ومهما يكن من الأمر فإن كتب الرحالة وأخبار رحلاتهم تُعد كنوزاً ساعدت في تقدم التاريخ البشري وانتشار المعلومة الصحيحة وخصوصاً إذا كان الرحالة يتصف بحس أدبي يساعده على الوصف والتقصي في تسجيل مشاهداته بأمانة وصدق، وحرص معظمهم على التفرقة بين المشاهد الشخصية والرواية عند تسجيل معلوماتهم.²

وطبقاً للعدد الثالث من فصيلة "ذاكرة مصر المعاصرة" التي تصدرها مكتبة الإسكندرية، يوليو 2010م، تحت عنوان "مصر تبهر اليابانيين بتقدمها"، أنه في عام 1862م (أي قبل ست سنوات من حكم مييجي) قررت اليابان أن ترسل بعثات الساموراي حيث تمر ببلاد كثيرة للوقوف على أسباب نهضتها وتقدمها؛ لتستفيد اليابان من التجارب المختلفة التي خاضتها تلك البلاد للنهوض والتقدم. حيث مرت تلك البعثة ضمن برنامج زيارتها بمصر. وقد زار "فوكوزاوا يوكيتشي" الساموراي المفكر والسياسي الياباني الكبير، مصر في طريق رحلته إلى أوروبا ضمن أعضاء البعثة اليابانية، وما زالت صورة البعثة أمام أهرامات الجيزة محفوظة ضمن الوثائق الهامة لمكتبة البرلمان الياباني "الدايت".

يقول البروفيسور سوسوموايشيدا الأستاذ في جامعة اليابان الدولية، وكذلك السفير كاتاكورا: إن فوكوزاوا سجل انطباعات غاية في الأهمية عند زيارته لمصر، فقد أصيب فوكوزاوا وباقي أعضاء البعثة بالدهشة عندما وجدوا في مصر قطارا وسككا حديدية، في الوقت الذي لم تكن اليابان قد عرفت القطارات بعد. بل إن فوكوزاوا سجل إعجابه الشديد بالسرعة التي يسير بها قطار السويس/القاهرة.

سجل فوكوزاوا انطباعه عن مصر ضمن أحد مؤلفاته، وقد أكد فوكوزاوا في كتابه عن إعجابه بالحمامات العامة في القاهرة، مشيراً إلى أنها أنظف من الحمامات العامة في اليابان. وأن كان قد أبدى دهشته من أن حمامات القاهرة أغلى من حمامات طوكيو في ذلك الوقت. وهو ما اعتبره مؤشراً على الرخاء الاقتصادي الذي كانت تعيشه مصر آنذاك، في الوقت التي كانت فيه اليابان تتلمس طريقها للتقدم. كما أبدى أعضاء البعثة اليابانية - كما يقول فوكوزاوا - إعجابهم بالتلغراف الذي لم تكن اليابان أيضاً قد عرفت بعد.³

يقول الأديب الياباني توكوتومي كينجيرو (لوقا): ها هي مدينة القاهرة، والنيل يجري في الناحية الغربية، وفي الجنوب الشرقي نشاهد جبل المقطم، ويبلغ عدد سكانها نحو ستمائة ألف نسمة منهم أربعون ألفاً من الأجانب.

² حسين فهيم، أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور اتنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1989م

³ مجلة ذاكرة مصر المعاصرة، مكتبة الإسكندرية، العدد الثالث، 2010م

وكنت أتبع رجلاً يرشدني إلى الفندق الذي سأنزل فيه، وقد اخترت فندقاً رخيصاً بالقرب من المحطة، واستأجرت مرشداً يرافقني لمشاهدة ليل القاهرة.

في المقهى كنت أسمع كلمات مدام ومسيو، بينما كان الناس يتسلون بلعب الطاولة (النرد)، كان المقهى شبيهاً بمقاهي باريس، في المساء يكثر المسافرون الوافدون على المقاهي، وبخاصة فندق "شيرد" الذي يحتوي على ستمئة غرفة تشغل عن آخرها، وبخاصة في المواسم. وقد شاهدت أيضاً فندق نيوكونتينيانتال هوتل، ولم أكن مهتماً بمشاهدة ما هو أوروبي أو على الطراز الأوروبي. زرت سوق الموسيقى، حيث توجد محلات ودكاكين صغيرة جداً في حوارٍ ضيقة، كان على أن أشق طريقي وسط الزحام الشديد بين الناس، وشاهدت الحمير التي وضعت عليها زينات وزخارف من المعدن والنحاس، ورأيت عجوزاً ذا لحية بيضاء تتدلى حتى صدره يمتطي حماراً يسوقه بين الزحام، كما شاهدت صبياً صغيراً يحمل قربة ماء، وشاهدت محلاً كتبوا أعلاه اسمه هكذا "علي بابا"، وشاهدت امرأة وضعت على وجهها النقاب الذي كشف عن عيني براقنتين. في الصباح الباكر جاءني المرشد مصطفى كنت على موعد لزيارة الأهرام، تزوج مصطفى مؤخراً، كانت يده وأصابعه مخضبة بالحناء. كان صباحاً بارداً -18 مايو 1906م- انطلقت إلى نهر النيل راكبا الحنطور، تلك العربة المميزة التي يجرها الحصان، شممت رائحة أزهار الأكاسيا، عبرت الكوبري الممتد على نهر النيل، وشاهدت تمثال الأسد عن اليمين وعن الشمال قعيداً، كان نهر النيل يمشي بالماء، وكانت المراكب والقوارب تنتشر على صفحة الماء تمضي هنا وهناك، جذبني منظر المراكب الشراعية فهتفت بداخلي: أه هذا هو نهر النيل؟! طوال رحلتي لم أكن أشاهد سوى البحر، فاعتادت عينا على مشاهدة البحر فقط، الآن أشاهد النيل وأشعر أنه مثل نهر "سوميدا جاوا". نحن الآن في الموسم الذي يقل فيه منسوب المياه عن العادة، لهذا إذا ذهبت إلى مصر العليا هناك في الصعيد فسوف أشاهد النيل على حقيقته

أتمنى أن تتوفر لي هذه الفرصة. ركبت قطارا يسير على سكة حديد أنشئت مؤخراً، وعلى طول النيل مضى بنا ناحية الجنوب، يقال إن خط السكة الحديد هذا سيتمدد مستقبلاً إلى أفريقيا، وقد وصل الآن إلى مدينة الخرطوم. على ظهر مقاعد القطار توجد تعليمات للمسافرين كتبت بثلاث لغات: العربية والانجليزية والفرنسية، وبشكل عام يمكن أن نقول إن مصر تتبع طريق السياسة البريطانية، إلا أنني أشعر بالتأثير الفرنسي على المجتمع بشكل أوضح من التأثير الإنجليزي.. كان القطار يمضي بين حقول القمح والحقول المزروعة بالخضراوات المختلفة، وأخيراً وصلت إلى هضبة مرتفعة، حيث أمكنني مشاهدة الأهرام.

رجعت كما جئت بالقطار، وفي المساء ذهبت مع المرشد لزيارة مسجد محمد علي ومشاهدة جبل المقطم، وشاهدت ساعة كبيرة قيل إن نابليون بونابرت كان قد أحضرها من فرنسا، ومن جوار مسجد محمد علي أخذت أشاهد مدينة القاهرة وألمح نهر النيل العظيم، وكان يمكنني أيضاً أن أرى مجموعة الأهرام الثلاثة. مضيت عبر منطقة فقيرة جداً مملوءة بالذباب ومكتظة بالأطفال، وشاهدت قبور المسلمين، التي كانت مغطاة بأسقف أقيمت

فوق أسوار المقابر، كانت جميع المقابر دون استثناء مزخرفة بكتابات من القرآن الكريم، ولاحظت أن رأس المقبرة يكون باتجاه مكة حيث يتجه المسلمون في صلاتهم، كانت هناك مقابر مزخرفة بألوان ذهبية، وسمعت ان المقبرة الواحدة تكلف نحو 300 ألف ين (في كتاب الرحلة اليابانية للأمير محمد على توفيق 1909م، ذكر أن هذا المبلغ 300 ألف ين كان يعادل 15 قرشا مصرياً وقتئذ، وكان هذا المبلغ كبيراً جداً في اليابان وربما كان كذلك في مصر خاصة عندما نعلم أن الجنيه الإنجليزي الإسترليني كان يساوي 97 قرشاً مصرياً تقريباً في عام 1921، والفرنك الفرنسي يساوي 26 قرشاً، والـ 50 قرشاً مصرياً تساوي 2.50 دولار) وقد أعدت مقاعد وأماكن للجلوس والراحة مُلحقة ببعض المقابر حتى يستريح أهل الميت، إذا ما جاءوا إلى القبر.. آه، حقا هذا بلد المقابر.

وفي صباح يوم الحادي والعشرين من مايو، زرت المتحف (متحف الآثار المصرية بالتحريير)، قال الأنثروبولوجي الياباني/ فوجي هوزو: إنه كان هنا ألفي طفل وثلاثة آلاف (ربما يقصد عدد الزائرين) لقد وهب الله الإنسان الرغبة في الحياة إلى ما لا نهاية، وإذا كان لأحد أن يشك في هذا فليأت وينظر إلى ما في هذا المتحف، حيث يوجد أناس من الأحجار، وأناس من خشب الأشجار، وأناس من الفولاذ (ربما يقصد بكلمة أناس هنا كلمة تماثيل)، وأناس من لحم وعظم حنطت أجسامهم. أنواع كثيرة من صور البشر، يتشاءبون في صمت وسكون ويعلمون: نحن هنا.. نحن ما زلنا على قيد الحياة. شاهدت تمثالا محنطاً أسود وفي الأذن شاهدت قرطاً من ذهب، وبدا القرط يبرق كأنه يضحك لأن الروح قد غادرت الجسد وتركته دون رجعة. أتمنى أن يُحفظ كل ما في هذا المتحف إلى الأبد، أتمنى أن يظل حياً إلى الأبد؛ عبرة لكل البشر! وللأسف لم تتحقق أمنيته بعد أن تم نقل معظم مقتنيات هذا المتحف إلى المتحف المصري الكبير بالهرم، ومتحف الحضارة بالمنيل!!⁴

وتمر هذه الأيام ذكرى زيارة جد جلالته الإمبراطور الحالي الإمبراطور شوا "ولي العهد آنذاك" لمصر منذ مئة عام بالضبط من الآن. ففي يوم 15 أبريل من عام 1921م وصلت البارجة التي يستقلها سمو ولي العهد وحاشيته إلى مصر، ثم استقل سموه قطارا خاصا من مدينة بورسعيد إلى القاهرة، حيث قم بزيارة الأهرامات، وتمثال أبو الهول بمحافظة الجيزة، ثم قام سموه بزيارة قصر عابدين في يوم 19 أبريل، حيث استقبله جلالته السلطان فؤاد الأول سلطان مصر في ذلك الوقت.⁵

وفي عام 1921م قرر الملك فؤاد إقامة كشك يحمل الطراز الياباني من الخارج، تخليداً لذكرى زيارة إمبراطور اليابان السابق عندما كان ولياً للعهد آنذاك، ويعتبر الكشك الياباني متحفاً، إذ يضم بعض مقتنيات حديقة القديمة، وصور الملوك، والرؤساء الذين زاروها، وقد اتخذ الكشك الشكل الثماني الأضلاع، وبكل ضلع شبك من

⁴ توكوتومي كينجيرو (لوقا)، الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (1906)، ترجمة سمير نوح وسارة تاكاهاشي، المركز القومي للترجمة، 2014م

⁵ كاتوري شينبو، رحلة الأمير هيروهيتو إلى الخارج في السنة العاشرة من حكم طايشو، ترجمة علاء الشرقاوي، العدد ٤٨، نشرة معرض الصور التذكاري لميجي، 2011م

درفتين من الشيش من الخارج، ومن الزجاج من الداخل، ويحيط بهذه الشبابيك من الخارج زخارف هندسية، ويقع الباب الرئيسي الوحيد للكشك في الجهة الشمالية ويتكون من درفتين من الشيش، وقد زخرف الكشك من الداخل بزخارف تحمل الطابع الإسلامي، كما يتوسطه فسقية بها وجه آدمي، وعندما تعمل هذه الفسقية فإن الماء يندفع من فم الأدمي.⁶

ولم تحظ هذه الزيارة بالاهتمام الإعلامي المطلوب وذلك بسبب الظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد، كانت مصر تعرف باسم "السلطنة المصرية" تحت الحماية البريطانية بين عامي 1914م و1922م، وكان يتولى الحكم السلطان فؤاد - الملك فيما بعد - بينما تولى الوزارة عدلي يكن باشا الأولى منذ 16 مارس وحتى 8 ديسمبر 1921م، لكن مع شهر إبريل (وقت زيارة ولي العهد الياباني لمصر) شهدت القاهرة احتفالات كبيرة بمناسبة عودة سعد زغلول من المنفى، وقال محمد على علوبة باشا في مذكراته وكان ضمن أعضاء الوفد مع سعد باشا في باريس، «لما كلف السلطان فؤاد، عدلي باشا بتأليف الوزارة في 16 مارس 1921م، فرح الناس، وقد تألفت وزارة الثقة التي طالما سعى سعد ورفاقه إلى تأليفها»، وبالرغم من ذلك فإن الخلاف دب بين الاثنين، وانقسمت الأمة إلى فريقين، فريق عدلي يضم كثيرا من المثقفين ووجهاء البلاد، وفريق سعد ويضم كثيرا من العامة والبسطاء.⁷

وتأت شهادة الكاتب والمؤرخ الياباني / نوبوأكي نوتوهارا: خرجت من الفندق لشوارع القاهرة في اول زيارة لي عام 1974م، ولا أستطيع أن أنسى ذلك الانفعال الذي كان يفور من داخلي، انفعال رائع مازال طعمه حيا حتى الآن. شعور مركب من المفاجأة والدهشة والاكتشاف والفرح. وبعد عشر سنوات من الزيارة الأولى (1984م) كنت في القاهرة نفسها، ولكن كانت رغبتني في الخروج إلى الشارع قد ذبلت، كنت أريد أن أقل عدد مرات خروجي قدر الامكان، ولم يكن السبب أنى أكره الغبار والضجة وحرارة الشمس القوية بل كان السبب هو أنني كنت أرى توترا شديدا يغطي المدينة كلها. ولكنني لا أستطيع أن أتجاهل حياة الناس في هذه المدينة. كانت وجوههم تدخل إلى عيني وهم يمشون وكأن شيئا ما يطاردهم. وجوه جامدة صامتة، وطوابير طويلة من الواقفين أمام "الجمعية" ومواقف الباص وغيرها، لقد رأيت الباصات المكتظة تجرى بينما يتعلق ركاب بالشبابيك والأبواب! يريد الناس أن يركبوا بأي ثمن، وفي هذا الازدحام المحموم ينسى الكثير من الرجال والنساء السلوك المحتشم الذي يوجبه عليهم الاسلام كمسلمين.

حتى في التاكسي يواجه الراكب اضطهاداً فالسائق يختار الراكب حسب المكان الذي يريد الذهاب إليه، ويرفض أن يقل الشخص الذي لا يعجبه شكله أو المسافة التي سيقطعها في شيء لا يصدق عندنا في اليابان.

⁶ كتاب حدائق الحيوان في مصر: الحكومة المصرية، وزارة الزراعة، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1946م
⁷ عبد الرحمن الراجعي، ثورة 1919، تاريخ مصر القومي (1914 إلى 1921)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م

باختصار التوتر يغطي الشارع، توتر شديد تتوقع أن ينقطع في أي لحظة، هذا التوتر يجعل الناس يتبادلون نظرات عدوانية ويزيد توتر المدينة نفسها أكثر فأكثر. كنت أسكن في بانسيون "جاردن سيتي" وكان قسم الهجرة والجوازات يشغل قسما من العمارة نفسها. وفي الصباح الباكر كان الناس يقفون في طوابير طويلة تلف العمارة كلها، شباب وأرباب أسر يريدون السفر إلى الخارج طلبا للرزق. كان الجميع يقفون تحت حرارة الشمس الحارقة بصمت، ووجوه جامدة فارغة إلا من التوتر والعجز، والموظفون الحكوميون لا يباليون بالناس. كنت كلما أردت الخروج أو الدخول أشق ذلك الطابور وكلما تأملت في وجوه المنتظرين الواقفين رأيت معنى قلق رب الأسرة وهو لا يعرف فيما إذا كان سيتم معاملته.

كان الموظف الحكومي ينهي الأمر كله بكلمة واحدة في نهاية الدوام: بكرة، وهذا يعني أن على ما بقي من الطابور أن يستأنف الوقوف نفسه في صباح اليوم التالي. هناك استثناء لمن يعرف أحد الموظفين عندئذ يتم إنجاز المعاملة بسرعة كبيرة.⁸

⁸ نوبوأكى نوتاهارا، العرب وجهة نظر يابانية ، منشورات دار الجمل للطباعة والنشر ، 2003م

المراجع

- آلان روسيون، الهوية والحداثة، الرحالة المصريون في اليابان، القرن التاسع عشر – القرن العشرون ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2014م.
- توكوتومي كينجيرو (لوقا) ، الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (1906) ، ترجمة سمير نوح وسارة تاكاهاشي ، المركز القومي للترجمة ، 2014م
- حسين فهيم ، أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت 1989م
- عبد الرحمن الرافي ، ثورة 1919 ، تاريخ مصر القومي (1914 إلى 1921) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999م
- كاتورى شينبو، رحلة الأمير هيروهيتو إلى الخارج في السنة العاشرة من حكم طائشو، ترجمة علاء الشرقاوي، العدد 48، نشرة معرض الصور التذكاري لميجي ، 2011م
- كتاب حدائق الحيوان في مصر: الحكومة المصرية ، وزارة الزراعة ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، 1946م
- مجلة ذاكرة مصر المعاصرة ، مكتبة الإسكندرية ، العدد الثالث ، 2010م
- نوبوأكي نوتاهارا ، العرب وجهة نظر يابانية ، منشورات دار الجمل للطباعة والنشر ، 2003م